شاعرنا إلا بالمـال ، فانطلق يلتمسه فى مواطنه ؛ ويظهر أنه جاء بما فيه البلغة ، ولـكن المنيـة حالت دون الأمنية ، ولنا على هذا كلام يضيق الوقت عن بسطه

والمـال فى نظر أبى الطيب إنما هو وسـيلة إلى غيره ، وقد اتهمه بعض حساده بالشح وفى طليعتهم أبو بكر الخوارزمى ذلك الشتامة الذى لم يسلم من أوضار لسانه إلا القليل

وحالة شاعرنا تنطق ببراءته من هـذه التهمة . أما أقواله فبرهان آخر :

وما حاجتى فى مسجد أستفيده ولـكنها فى مفخر استجده

غَـثاثة عيشى أن تغث كرامتى وليس بغث أن تغث المآكل

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقر

بقى علينا أن نسأل من أين تسربت هذه الفكرة إلى رأس أبى الطيب ؟ والجواب أن لنفسه المجبولة على التعالى أقوى نصيب فى تكوين هذه الفكرة وتغذيتها وتنميتها ، فقد خلق شاعرنا شجاع القلب ، أبى النفس ، حمى الأنف ، خصيب العقل ، ملتهب الفطنة ، فياض العاطفة ، صباً بمعالى الأمور زاهداً فى سفسافها

والعامل الآخر فى هذه الفكرة الأوضاع السياسية فى البلاد الاسلامية يومئذ ، فقد كانت هذه البلاد مسرحاً للفتن والدسائس ، ومهباً مقسماً بين رجال الثورات وأرباب الدعوات وأهل الختـل والغدر ، وقد ساهم فى ذلك حتى العبيد ، وحسبك بكافور على ذلك مثالاً فقد صار :

يدبر الأمر من مصر إلى عدن إلى العراق فأرض الروم فالنوب

فما بالك بفتى يعربى توفرت فيه كل أسباب السيادة ومزايا الرياسة ؟

ولـكن ما الحيلة وقد كبا به جده دون الغاية ، وحالت المنية دون الأمنية ؟ ولا ضير فقد سعى وليس عليه إدراك النجاح

على أن الجد الذى خانه فى ميدان السياسة ، حلق به فى سماء المجد الأدبى فأطلعه فيها شمساً تفيض بالنور على مر الدهور ؛ وإن أخطأته امارته السياسية فقد اعتزت به إمارته الأدبيـة ، وتلك فانية لأنها تدور حول الحطام ، أما هذه فباقية على مر الأيام

طه الراوى

المرأة المســـلمة

فى القرن التاسع للهجرة (الخامس عشر للميلاد)

بقلم الآنسة نعيمة المغربى

تطلع علينا مكتبة الأديب السيد حسام الدين القدسى بالقاهرة من حين الى آخر — بطائفـة صالحة من الـكتب العربية القديمة ، فينبش كنوزها الدفينة ، ويعرض جواهرها على أنظار عشاق الأدب ، وهواة لغة العرب ، وهى خدمة موفقة يضطلع بها الأديب المذكور ، ويقصد من ورائها خدمة ثقافتنا العربية القديمة وأبنائها الذين يقدرون حسن اختياره وحميد مجهوده . من ذلك أنه باشر طبع كتاب (الضوء اللامع) فى تراجم رجال القرن التاسع تأليف المحدث الـكبير والمؤرخ النقادة شمس الدين السخاوى ؛ وهذا الأثر من أعظم آثار السخاوى وأكثرها شهرة ، يقع فى عـدة مجلدات ضخمة ، ظهر منها الى اليوم اثنا عشر جزءا . وقد خص المؤلف الجزء الثانى عشر من كتابه بتراجم نساء القرن التاسع . وكثيراً ما اقتصر على اسم المترجمة وتاريخ ولادتها ووفاتها والاجازة التى تلقتها من شيوخها إن كان ثمة إجازة . ومع هذا فالباحث يستطيع أن يستخرج من (الضوء) فوائد جمة ذات قيمة تزداد وضوحا كلما أوغل المطالع فى مطالعته وازداد للمؤلف صحبة فى تتبع أخبار من ترجم من نساء عصره ، فهو يقع من وقت الى آخر على حوادث طريفة وفوائد ممتعة من أحوال نساء ذلك العهد

والـكتاب يشتمل على ترجمة ألف امرأة ونيف ؛ وهو عدد كبير لا يسمه كتاب واحـد لو أن المؤلف توخى الاسهاب والاطالة ، ولـكنه لجأ الى الايجاز واهمال التفاصيل كما مر . ولا أعرف السبب الذى حدا بالمؤلف رحمه الله الى ذكر بعض نساء عصره ما دام انه لم يظفر من أخبار حياتهن بما يستحق الذكر والتدوين . وكنت أرجح أحياناً الى كتاب (شذرات الذهب) بنية زيادة الاستيثاق من ترجمة بعض من ترجم المؤلف لهن ، فأجد صاحب (الشذرات) أيضاً قد نحا منحى (صاحب الضوء) فى الاختصار والاقتصار على الاسم والوفاة . ولعل عذر

المؤلفين فى ذلك أن نساء عصرهم كن ذوات حياة مختصرة فتبع ذلك اختصار فى الترجمة ، وقد يكون السبب فى ترجمة هؤلاء فى (الضوء اللامع) أنهن ينتمين إلى مؤلفه بقرابة أو تلمذة أو جوار أو صداقة والد ؛ كما لمحنا ذلك فى تراجم كثيرات منهن . وما يدرينا أن بعضهن كن يكلفنه ترجمتهن حباً لتخليد ذكرهن ولو بالاقتصار على اسمهن ، وهذا كما يفعل بعض نساء زماننا ؛ (بل وبعض رجاله) إذ يرغبن الى رجال الصحافة أن يذكروهن فى صحفهن مباهاة بين أترابهن

وعلى كل فان هذا الجزء روض نسأى حافل بشتى أنواع الأزهار والرياحين ؛ تقرؤه بلذة وشغف ، إذ تتوفر لديك فيه النماذج المتنوعة عن المرأة المسلمة فى ذلك العهد الذى ساد أو بدأ يسود فيه الانحطاط . ولعل أبرز طابع فى (الضوء) هى الصراحة التى امتاز بها المؤلف فى معظم ما كتب وخلد من أثر ، وفى هذه الصراحة ما يشوق القارئ ويُغريه بالمطالعة ومرافقة المؤلف إلى النهاية

أتى المؤلف على طائفة كبيرة من نساء عصره وعرض علينا من أحوالهن وجوهاً مختلفة وأشكالاً متعددة ونفسيات متباينة وعقليات متغايرة . فمنهن المحدثة العالمة ، والحافظة البارعة ؛ ومنهن التقية الورعة والمحتسبة الصابرة ؛ ومنهن الحبشية السوداء والجركسية الحسناء ، ومنهن سليلة الملوك والسلاطين ؛ ومن أثر فيها كيد الحاسدين وسحر الساحرين . يذكرهن لنا كما عرفهن ووصلته أخبارهن . وكثيرات منهن عاصرن المؤلف وكن من المعجبات به المعتقدات بسعة فضله وغزارة علمه

فى القرن التاسع للهجرة كانت المرأة المسلمة فى مصر والشام برغم مايعزى إليها من تأخر تتلقى عن الأئمة ويتلقون عنها . يجيزها العلماء وتجيزهن ؛ يناظرها الأدباء وتناظرهن ؛ تحفظ دواوين الشعر وتروى عن الشعراء ؛ ذات فكر ثاقب وقريحة نيرة ورغبة ملحة فى التحصيل ، لا يعتريها سأم ولا ملل فى طلب العلم والأخذ عن أساطينه ، وحفظ كتب الفقه والأدب ، ودواوين الشعر والمذاكرة فيها

ومما يلحظه المطالع أن معظم نجوم (الضوء) لمعن فى سماء مصر وتفيأن ظلال نخيلها وارتوين من ماء نيلها ؛ واغترفن من بحار علومها . وقد أحببت أن أحصى الشواعر فلم أظفر بسوى واحدة نظمت الشعر وكان بينها وبين المؤلف وسواه من العلماء مساجلة ومناظرة ، فهى تشبه من هذه الجهة شاعرة الشام فى القرن العاشر للهجرة السيدة عائشة الباعونية المدفونة فى صالحية دمشق . ومن هنا يتبين أن إقبال النساء على قرض الشعر فى ذلك العصر أعنى القرن التاسع كان قليلاً ، وكانت جل رغبتهن يومئذ فى تلقى علوم الحديث وروايته . وللبيئة — ولا ريب — أثر فى خلق هذا الميل فيهن وطبعهن بهذا الطابع

والشاعرة الوحيدة التى ذكرها (السخاوى) وترجمها ترجمة مفصلة هى (فاطمة) المشهورة بلقب (ستيتة) ابنة القاضى كمال الدين محمود بن شيرين الحنفى . قال المؤلف ما نصه :

(ولدت كما كتبته لى بخطها فى سادس المحرم سنة خمس وخمسين وثمانمائة بالقاهرة ونشأت فتعلمت الكتابة وتزوجت الناصرى محمد بن الطبلغا ثم مات عنها فتزوجها العلاء على بن محمد ابن بيبرس حفيد ابن أخت الظاهر برقوق فاستولدها بيبرس ، ولاحظ لها فى ذلك مع براعتها فى النظم وحسن فهمها وقوة جنانها حتى كانت فريدة فيما اشتملت عليه . وقد حجت وجاورت وسكنت بجوارنا . ومما كتبت به الى بعد مجىء الخبر بموت أخوى من نظمها :

قفا واسمعا منى حديث أحبتى ... فأوصاف معناهم عن الحسن جلت
أناس أطاعوا الله نارت قلوبهم ... وأبصرت الأشياء من غير نبأة
وقد كوشفوا عن كل ما أضمر الفتى ... ونارت قلوب منهم ببصيرة

ومنها :

أثابكم ربى وعظم أجركم ... على فقد أحباب وأحسن جيرة
كرام سموا علماً وحلماً وسؤددا ... وكنتم بهم فى غبطة ومسرة
قطعتم لذيذ العيش وصلاً بقربهم ... فوا أسفا عند الفراق وحسرة

ومما كتبه اليها المؤلف مجاوباً : (يا بديعة المعانى ، ورفيعة المبانى ، ومن فاقت الكثير من الرجال فضلاً عن النساء ، وراقت أبياتاً فحاكت الخنساء ؛ حفظ الله تعالى دينك ودنياك الخ)

ولها أشعار كثيرة وقصائد مطولة تدل على مبلغ اجتهادها فى تحصيل العلم والأدب . ولها أيضاً مطارحات شعرية مع بعض الأدباء رجحوها بها عليهم

ومما يستحسن ذكره ومرت الاشارة إليه أن المؤلف ذكر ترجمة موجزة لبعض قريباته : منهن جدته وعمته وابنة

شقيقه وأخته بالرضاع ووالدة امرأته التي أصيبت بالفالج وماتت عقب ذلك لدى سماعها خبراً مكذوباً عن وفاة المؤلف وابنتها زوجته وهما في الحج . وكذلك جاريته (أبرك) الحبشية (التي كانت ضابطة لبيتهم قانعة صافية)

ومن يتأمل الكتاب وتراجم نسائه يلمح وقوع أمور في ذلك العصر لا يزال يقع مثلها في عصرنا الحاضر مع تقادم العهد وتطاول الزمن : فمن هذا القبيل :

(سعادات) ابنة الشيخ نور الدين البوشي . تزوجها البقاعي بعد موت والدها ونالها منه من الذل ما لم يكن لها في حساب ، بل نال طلبة أبيها من أجل مساعدتها ما شاء الله ، وكذا مس أخاها منه كل سوء فلم تحتمل وسألته الطلاق بعد ولادتها منه وأشهدت عليها أنها متى رامت نظر الولد أو أخذه كانت ملتزمة بخمسمائة دينار ، وسمحت بمفارقة ولدها ومهجتها مع مزيد حبها له) . وكذلك (فاطمة) ابنة البدر الحنبلي تزوجها سبط العز الحنبلي عز الدين محمد بن الشهاب الجوجري فلم يحصل التئام ففارقها بعد بذل له وإبراء)

وما كان المؤلف ليحجم عن انتقاد ما يجب انتقاده من أحوال مترجمات كتابه :

(إلف) ابنة القاضي علم الدين البلقيني ، تزوجها عبد القادر ابن الأحدي ، ثم عبد القادر بن الرسام الحموي ، ثم أمير المؤمنين المستنجد بالله يوسف ، ثم فارقها واتصلت بابن عمها البدر أبي السعادات بعد موت زوجته أختها وأقبلت حينئذ على الخير وقررت في مدرسة جدها عند قبره قرّاء في كل يوم ، وقامت بأمر المدرسة وبتفقد الفقراء والأرامل ، وتزايد ذلك بعد موت ولدها حتى صارت فريدة في أقرانها وأمثالها ، ورتبت قرّاء يقرأون عندها الحديث والتفسير) ، الى أن يقول : (ولا أحمد كثيرا من تصرفاتها خصوصاً فيما يتعلق بالأيتام)

وكنا نرغب لو أن المؤلف كان أكثر ايضاحا فيذكر لنا ما لم يعجبه من تصرفاتها وهي التقية الصالحة التي زخرت حياتها بعمل البر والاحسان

وقد قص علينا حادثة لعب فيها السحر دوره ، وذهب ضحيته نفسان بريئتان لا نعلم مبلغ التهمة المنسوبة اليهما من الصحة

(شيرين) الرومية ، هي أم الملك الناصر فرج بن برقوق ، ولما تسلطن ابنها صارت (خوند الكبرى) وسكنت قاعة العواميد بقلعة الجبل بعد أن تحولت منها (خوند ازد) زوجة سيدها ، ولم تلبث الا يسيرا حتى تملكت ولزمت الفراش ، وكثرت القالة بسببه ، واتهم جماعة بسحرها ، وظن ابنها أن ذلك من بعض الخوندات زوجات أبيه حسدا وبغضاً ، لأنها مع كونها بارعة الجمال سارت سيرة جميلة من الحشمة والرياسة والكرم مع الاتضاع الزائد والخير والدين . ولها معروف ومآثر حسنة ، جدّدت بمكة رباط الخوزي ووقفت عليه وقفاً وأصلحت ما كان تهدم منه . ماتت في ذي الحجة سنة اثنتين وثمانمائة ودفنت بالمدرسة البرقوقية رحمها الله . ذكرها شيخنا في (إنبائه) باختصار وقال : « كانت كثيرة المعروف والبر » . زاد العيني : (واتهمت جارية بسحرها فضربت حتى اتهمت نصرانياً كاتباً فعوقب فلم يقرّ فحبس حتى مات هو والجارية)

وما زال هذا الضعف الخُلقي في الخوف من السحر والاعتقاد به سائداً إلى اليوم في الأقطار العربية على اختلاف بينها في درجة ذلك ، وحوادث ملوك الجان ، ما زالت ترن في الآذان

والكتاب مفيد لا تمل قراءته ولا تسأم صحبته . فهو كالبستان فيه من كل فاكهة زوجان ، وما أحوجنا إلى مطالعة أمثال هذه الكتب التي ترينا صورة واضحة جلية عن حياة نساء تلك العصور وتطلعنا على درجة ثقافتهن ، وطريقة تعلمهن . والكتب في تراجم النساء مما تركه لنا السلف قليلة جداً وهذا منها ، ولا تنس الجزء الثامن من طبقات ابن سعد الخاص بالصحابيات رضوان الله عليهن

(دمشق) نعيم المغربي

سراج الملوك

كتاب قيم للامام أبي بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي . فيه علم وأدب ، واجتماع وأخلاق ، وتربية وحكم إسلامية ، وعظات دينية ، وذخيرة الأديب ، ونزهة الجليس ، لا يستغني عنه عالم ولا واعظ . يقع في ثلثمائة وتسعين صفحة من القطع الكبير ، ورق أبيض ناعم ، وثمنه عشرون قرشاً ؛ ويطلب من المكتبة المحمودية بالأزهر ، صندوق بوستة رقم ٥٠٥ بمصر تليفون ٥٣٠٦٧